الفصل الثانى

فى اثبات البارئ وتوحيد الصانع بالدلائل البرهانيّة والحجج الإضطراريّة

أقول أنّ الدلائل الّتى تدلّ على اثبات اللّه عزّ وجلّ غير محصاة ولا متناهية فى أوهام الخلائق لأنّها بعدد أجزآء أعيان الموجودات من الحيوان والنبات وغير ذلك ممّا خفى من الأبصار ، أنّه ما من شىْء وإن صغُر جسمه ولطُف شخصه إلّا وفيه عدّة دلائل تعبّر عن ربوبيّته وتصرّح عن إلاهيّته تصريحًا ينتفى مع أدناها الشبهة ويُزاح العلّة وإلى هذا المعنى نظر بعض المحدّثين وفى كلّ شىءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد ولن يجوز غير ما قُلْنا لأنّه لما كان هو خالق الخلق وصانع الصُنع ومخترع الأعيان ومُخرجها من العدم الى الوجود لم نخلُ من آثار خلقه واختراعه فهى الدلائل المقترنة بها الشاهدة على صانعها ومُنشئها فمن الدليل على اثبات البارئ سبحانه

وتعالى أنّه خلافٌ بين الأوائل والأواخر إنّ الأرض منها عامر مسكون معلوم وعامر مسكون غير معلوم وخراب مجهول غير مسكون وان عظم المسكون المعلوم منها العرب وفارس والروم والهند وهم ذوو[1] الآداب والاخلاق من سائر أهل الأرض لهم السِيَر والسُنَن والآيين والحكمة والهمّة والنظرُ والخصال المحمودة والعلوم المأثورة من الطبّ والتنجيم والحساب والخطّ والهندسة والفراسة والكهانة والأديان والكتب وغير ذلك ممّا يستعملونها فى معاملاتهم وموضوعاتهم وما سواهم رَعاعٌ وهمجٌ سافلوا الرتبة عن رتب من قدّمنا ذكرهم وناقصوا الحظّ من حظوظهم إمّا بهيميّ الطبع فى قلّة التميز والفطنة وإمّا سَبُعيّة فى الجفوة والغِلْظة حتّى أنّ منهم مَنْ ينزو بعضهم على بعض ومنهم من يأكل بعضهم بعضًا لعلل قد ذكرها القدماء ليس هذا موضع شرحها بقول الله سبحانه وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[2] ثمّ إنّ هذه الأُمم[3] المحمودة أخلاقهم مع اختلاف أصنافهم وافتراق ديارهم وتفاوت آرائهم فى المذاهب

[1] Ms. ذو.

[2] *Qor.*, ch. XVI, v. 8.

[3] Ms. الأُمّة.

الّتى ابتجلوا والأديـان [f° 12 v°] الّتى اعتقـدوا لم يختلفوا فى وجود آثـار الصانع الحكيم فى هذا العالم وما يشاهدونـه فى أجزائـه وأبعاضه واختلاف طباعه وتعاقب أعراضه فـاذا صحّ وجود البـارئ الأزلىّ القـديم الاوّل السابق ببـدائـه العقول وشهادة النفوس واضطرار الفطرة والجاء الخلقة بـذلـك بنى تـأسيسهم وعليه بنى تركيبهم إلّا مَنْ شدَّ مِنْ جاهل أو جاحد مؤوف فى نفسه أو مغلوب على عقله إذ غير مفهوم ولا موهوم أثر من غير مؤثر ولا صُنع من غير صانـع ولا حركـة من غير محرّك كما يجحد الضرورة وجود كتاب بلا كاتب وبناء بلا بانٍ وصورةٍ بلا مصوّر فسبحانَ مَنْ لا انتهآء لـه إذ لا ابتدآء لـه منـه البدايـة وإليه النهايـة مُبدع القوى وممدّ الموادّ وسابق العلل ومنشئ البسائط ومركّب العناصر وحافظ النظـام ومدبر الأفلاك ومحدث الزمان والمكان ومحيل الأركان الحكيم العَدْل القائم بالقسط الناظر للخلق البرئ من المعائب الغنىّ عن اجتلاب المنافع مدبّر الأمور ومدهّر الدهور أرخى على الأوهام ستـور ربـوبيّتـه وضرب على مطالع العقول حُجب إلاهيّتـه فليس يُعْرَف إلّا بما عرّف بـه الخلق نفسه ولا يُـدرك أحدٌ

من صفاتـه كنهة الأبصارُ عن بـدائع صنعه خاسئةٌ والبصائرُ عن ملاحظتها نـابئةٌ والقلوب فى آثـار الدلائـل عليه حائرة والنفوس مع حيرة القلوب إليه والهة والعقول عنـد محافظـة الاشراف عليه مضمحلّـة متلاشية معبود فى كلّ زمان معروف بكلّ لسان مذكور بكلّ اللغات موصوف بتضادّ الصفات ليس كمثلـه شئٌ وهو السميع البصير نحمده على ما هدانـا ولـدينه اجتبانـا ونشهد ان لا الـه إلّا اللّـه نتميزّ بـه عن المشركين ونتزيّـل عـدد الجاحدين ونشهد ان محمّـدًا عبـده ورسولـه أرسله بالهدى ودين الحقّ غير حادس ولا ساحر ولا كاهن ولا شاعر ولا محتال ولا متنبّ كذّاب ولا مريد دنيا ولا قـائـل بـالهوى فـأبلـغ وأدّى وانـذر وأهدى وصدع بـأمر اللّـه حتى أتـاه اليقين فصلوات اللّـه على روحه غـاديـةً وبردات رحمتـه مترادفـة على آلـه اجمعين ، هذا التحميد الـذى وجب أن نصدّر بـه كتابنا أخّرنـاه الى حيث قدّرنـا انـه أولى بـه وأليق ، ومن الدليل على اثبات البارئ سبحانـه وَلَـهُ النفوس وفزعُ القلوب إذا حزبت الحوادث إليـه اضطرارًا إذ لا يوجد

? Lisez بركات

مضطرّ وقد عضّته نائبة ولدغته ناكبة يفزع الى حجر أو شجر أو مدد أو شئ من الخلائق الّا اليه ويدعوه بما هو معروف عنده من اسم او صفة هذا مشاهد عياناً كما تفزع النفس عند المكاره المخوفة إلى طلب المهرب والنجاة وكما يفزع الطفل الى ثدى أمّه ضرورةً وخلقةً كذلك الله فى معرفة خلقه إياه لأنّ أثر الدلالة فى الخلق عليه أعظم من أثر الطبع إلى مالا يلائمه وينافره ولا يمكن الملحد المنكر وان غلا وتعمّق فى الإلحاد الامتناع[1] فى معرفة اللّه واجراء ذكره واسمه على لسانه شاء أَمْ أبى فى حال عمده ونسيانه لأنّ قلبه ولسانه على ذلك الخُلق كما أنّ طبعه على الميل الى المحبوب والازورار عن المكروه جُبِلَ [f° 13 r°] ومن الدليل على اثبات البارئ جلّ وعزّ أنّه لا يخلو لسان أمّةٍ من الأمم فى أقطار الأرض وآفاقها إلّا وهم يسمّونه بخواصّ من أسمائه عندهم ومستحيل وجود اسم لا مسمّى له كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل كذلك المسمّى موجب الاسم وما هو فى التمثيل إلّا بمنزلة

[1] Ms. والامتناع.

الحامل والعرض المحمول فكما يستحيل وجود عرض إلّا فى جوهر كذلك يستحيل وجود اسم إلّا لمسمًّى فمن ذلك قول العرب له اللّه مفردا من غير أن يشاركوه فى هذا الاسم بأحد من معبوداتهم لأنّه خاص لهم عندهم وكانوا يُطلقون على غيره على التنكير وامّا الربّ بالتعريف والرحمن فلم يكونوا يجيزونه إلّا لله تعالى وانّما تسمّى[1] مسيلمة الكذاب بالرحمٰن مضادّةً لله جلّ وعزّ ومعاندةً لرسوله عليه السلم ذلك مشهور مستفيض فى قوافى أوائلهم قبل قيام الإسلام فمن ذلك قول بعضهم فى الجاهليّة [طويل]

أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ ٱلْفَتَاةُ هَجِينَهَا أَلَا قَطَعَ ٱلرَّحْمٰنُ مِنْهَا يَمِينَهَا

فأضاف فعل القطع الى الرحمٰن لأنّه أراد به الدعآء وعلم أنّه لا يجيب الدعآء إلّا الله وقول أميّة بن ابى الصّلت [بسيط]

وَٱلْحَيَّةُ ٱلْحَنْفَةُ ٱلرَّقْشَآءُ أَخْرَجَهَا مِنْ جُحْرِهَا آيَاتُ ٱللّٰهِ وَٱلنَّسَمُ

إِذَا دَعَا بِٱسْمِهِ ٱلْإِنْسَانُ أَوْ سَمِعَتْ ذَاتَ ٱلْإِلٰهِ يُرَى فِى سَعْيِهَا زَرَمُ

[1] Ms. سمى.

وإنّما أتينا بهذا البيت حجّةً لإثبات اسم الإلاهيّة لا لرُقيّة الحيّة وقول زيد بن عمرو. [طويل]

إلَى اللّهِ أهدِى مِدْحَتِى وَثنايايا[1] وَقَوْلًا رَصِينًا لابنى الدهر باقيا
إلَى المَلِكِ الأعْلَى الّذى ليس فوقَهُ إلٰهٌ ولا ربٌّ سواه مُدَانِيا

وقول فارس هرمز وايزد ويزدان ويزعمون أنّ عبادتهم النار يقرب إلى البارئ عزّ وجلّ لأنّها أقوى الإسطقسات وأعظم الأركان كما قال مشركوا العرب فى عبادتهم الأوثان ما نعبدهم الّا ليقرّبونا الى الله زُلْفَى ولا يجوز أن يكون غير هذا حالة من يعبد شَيْئًا من دون اللّه لأنّه يعلم أنّ معبوده من خشب أو حجر أو نحاس أو ذهب أو شئ من الجواهر غير خالقه ولا صانعه ولا مدّبر أمره ولا محوّله ولقد دخلتُ بيت نار خُوزَ وهى كورة من كور فارس قديمة البنآء وسألتهم عن ذكر البارئ فى كتابهم فأخرجوا إلىَّ صُحفًا زعموا أنّها الابسطآ وهو الكتاب الّذى جاءهم به زردشت فقرءوا علىَّ بلسانهم وفسّروه علىَّ بتفهومهم الفارسيّة

[1] Ms. ثناييا.

فيكمازهم بهسته هرمز وبشتاسبندان فكمازهم رستخيز قالوا وهرمز هو البارئ بلسانهم وبشتاسبندان الملائكة ومعنى رستخيز فَنِي فَقُمْ وقول الأعاجم بلسان الدريّة خذاى وخذاوند وخذايكان وقد سمعتُ غيرَ واحدٍ قال فى تأويله خذست وخوذبوذ منعاهأنّه هو بذاته لم يكوّنه مكوّنٌ ولا يُحدثه مُحدثٌ وقول الهند والسند شيتاوابت ومهاديو وأسمآء كثيرة غير هذه يصفونه بخواصّ افعاله [f° 13 v°] وقول الزنوج ملكوى وجَلوِى قالوا معناه الربّ الاعظم وقول التُرك بير تنكرى يعنون الربّ واحد وزعم بعضهم أن تنكرى اسم لحضرة السمآء فإن كان كما ذكروا فإنّهم قد امنوا بالمعنى المطلوب من الإلهيّة وانّما شكّوا فى الصفة وقال بعضهم تنكرى هو السمآء واسم البارئ عندهم بالغ بايات معناه الغنى الاعظم وقول الروم والقبط والحبشة وما يدانيها من البُلدان بالسُريانيّة لأنّ عامّتهم نصارى لاها ربا قدّوسا ولا فرقَ بين السُريانيّة والعربيّة إلّا فى أحرُف يسيرة فكأنّ السريانيّة سلخت من العربيّة والعربية سلخت من السريانيّة وقول اليهود بالعبرانيّة ايلوهيم ادناى اهيا شراهيا

ومعنى ايلوهيم اللّه واوّل[1] التورية برشيت بارا ايلوهيم يقول اوّل شئ خلقه اللّه هذا الذى عليه معظم الأمم والأجيال من أهل الكتاب وغيرهم فامّا أقاطيع الناس فى مجاهيل الأقاليم فمن يحيط بلغاتهم إلّا الذى خلقهم وقسم بينهم ألسنتهم وسمعتُ قومًا من برجان يسمونه ادفوا فسألتهم عن اسم الصنم فقالوا فع وسألت القبط من صعيد مصر عن اسم البارئ بلغتهم فزعموا احد شنق كذا ظنّى واللّه أعلم،

ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع الترتيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتّساق والاتقان فلا يخلو من ثلثة أوجه إمّا انّه لم يزل كما هو وإمّا انّه لم يكن فكان بنفسه وإمّا انّه كوّنه مكوّنٌ هو غيره فلمّا استحال ان يكون قديمًا لم يزل لمقارنة الحوادث إيّاها وإن لم يخلُ من حادث فحادث مثله واستحال ان يكوّن الشئ نفسَه لاستحالة الكائن أن يبقى نفسه فكيف يجوز توهّم المعدوم من أن يتركّب فيصير عالمًا لم يبقَ غير الوجه الثالث وهو أنّ كوّنه مكوّنٌ هو غيره غير معدوم ولا محدث وهو

[1] Ms. répété deux fois.

البارئ جلّ جلاله واعلم ان البارئ عزّ وجلّ ليس بمحسوس فيحصره الحواسّ ولا معلوم بالإحاطة فيدرك كيفيّته وكميّته وأينيّته ولا مقيّس بنظير له أو شبيه فيُعلم بأكثر الظنّ والحزر ولا موهوم بصورة من الصُوَر لكنّه معروف بدلائل افعاله وآيات آثاره موجود فى العقول لا غير ولا تُوجَدُ آثاره وافعاله إلّا فى خَلْقه ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه تفاضل الخلق فى الدرجات والطباع والهمم والإرادات والصُوَر والأخلاق وتمايز الأشخاص والأنواع من أجناس الحيوان والنبات فلو انها مكونة[1] بالطباع لاستوت أحوالها وتكافأت أسبابها وكانت تكون فى انفسها مختارة ولما يُوجَد فيها ناقص ولا عاجز ولا مذموم ولا متأخّر عن درجة صاحبه فلمّا وجدنا الامر بخلافه علمنا أنّ مدبّرًا دبّره ومرتّبًا رتّبه وهو البارئ سبحانه، وقد قلنا فى صدر هذه المقالة ان عدد الدلائل عليه تعالى وتقدّس غير محصاة ولا متقصّاة لأنّك لو عمدتَ الى أصغر شخصٍ من أشخاص الحيوان وأعملتَ فكرك فى تعداد ما يوجدك من آثار صُنع الصانع فيه لرجعت حسيرًا عَييًّا

[1] Ms. مكوّن.

وأعجزتك حُجَج البارئ جلّ وعز وحيّرتك آثار صُنعه وذلك في المثل كناظر في بَعُوضةٍ أو نملةٍ [f° 14 r°] أو ذُباب كيف بنى البارئ جلّ وعزّ جسمه في لطفه وصغر أجزائه وكيف أطلق له القوائم والأجنحة وكيف ركّب فيه من الأعضآء ما لو فُرِّقَتْ لما كان الطَّرْف يدركها ولا الوهم يمسّها ولا الحاسّة تجدها وكيف ركّب فيه من الطبائع ما تمّ به قوام أركانه واستوآء نظامه وكيف أودعه معرفة ما فيه صلاحه من طلب منافعه واجتناب مضارّه وكيف سلك في جوفه مداخل غذائه ومنافذ طعامه مع خفّة جسمه وقلّة ذاته وكيف حمل عليه الأعراض وصبغه بألوان الصِبْغ وكيف ركّب الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والصوت والصورة وكيف ركّب فيه العين بل كيف ركّب في عينه البصر هذا في صغار هوامّ ما يتولّد وإن كان طبع الزمان علّةً لبعثه وإثارته فانه لم يتركب هذا التركيب العجيب والنضيد الأنيق إلّا من تدبير قادر حكيم وكذلك لو نظر الى أدون نبت من النبات وما جُمع فيه من اختلاف ألوانه من نَوْره وورقه وفرقه وجذعه وعرقه واختلاف طعوم أجزائه ورائحتها ومنافعها ومضارّها

لدلّ ذلك على تدبير قادر حكيم وكيف لو رجع الى نفسه فنظر الى كمال صورته وحسن هيئته[1] واعتدال بنيته مع ما خُصّ به من الحكمة والعلم والفطنة والبحث والفكرة بلطيف الأُمور وجليلها وحذقه بأنواع الصناعات وحسن اهتدائه اليها وخبرته بالأُمور الغامضة واستيلائه على جميع الحيوان بفضل عقله وزيادة فطنته ثم هو مع ما وصفناه به من الكمال والتمام مبنىٌ[2] على الضعف والحاجة إلى ما صغير ما فى العالم وكبيره مضمن بالنَصَب والتعب عاجز عن دفع ما يحلّ به من الآفات جاهل بأسباب كونه وتصرّفه فى نشوه ونمائه وزيادته ونقصانه محتاج الى ما يقيمه ويعيشه لدلّه ذلك على تدبير قادر حكيم وكذلك إذا نظر إلى هذا العالم وما يرى فيه من شواهد التدبير وآثار التركيب فى الهيئة والشكل والصُوَر مع اتّصال بعضه فى بعض وحاجة بعضه إلى بعض من اعتقاب الحرّ والبرد واختلاف الليل والنهار واتّفاق الأركان وتقاومها على تضادّها وتباينها علم أنّه من تدبير

[1] Ms. هيأته.

[2] Ms. منىٌ.

قـادر حكيم ولو جاز لمتوهّم ان يتوهّم حدوث هذا العالم من غير محدث لجاز لغيره أن يتوهّم وجود بنآء من غير بانٍ وكتابةٍ من غير كاتب ونقش من غير نقّـاش وصورةٍ من غير مصوّر ولساغ لـه إذا نظر الى قصر مشيّد وبنآء وثيق أن يظنّ أنّـه انساب إلى كومة من التراب مجتمعة لم يجمعها جامعٌ فـاختلط بها من غير خالط حتّى التفّت ونـديت ثم انسبكت لبنًا على اكمـل التقـدير وآانق التربيـع من غير سابق ولا ضارب ثم تـأسّس أساس القصر وتمكنت قواعده وارتفعت ساقـاتـه وأعراقـه حتّى إذا تطـاولت حيطـانـه وتكاملت اركانـه وتطابرت اللبن وتراكمت على حواشيها وتناضدت أحسن التراكم والتناضد ثم تساقطت الجذوع والجوائز من أشجارها على قـدر البيوت والخطط والمحتطّة للأبنية بلا حاصد لها ولا عاضد ثم انتجرت بـلا ناجر [f° 14 v°] وانتشرت بـلا ناشر واسفنت بـلا سافن فلما تهيّأ منـه الكمال واستقـام المائـل ترفّعت بـأنفسها فـانغرزت فى مغارزها وتسقفت فوق بيوتها وفـاقت أساطينها تحتها ثم انطبقت عليها صفائحها وانتصبت أبوابها فـانغلقت بذاتها ثم تكلّس القصر وتسيَّع وتبلّط وتجصّص وتنقّش بـأنواع

التزاويق والنقوش واستوى أمره وشاد بناؤه واجتمع متفرّقه على أحسن التقدير واكمل التدبير حتّى لا تعرّى منه ناحية ولا لبنة ولا قصبة إلّا ومفهوم للناظر إليه موضع الحكمة والحاجة إليه من غير فاعل فعله ولا صانع صنعه ولا ساعٍ سعى فيه ولا مدبّر دبّره وكذلك[1] لو نظر الى سفينة مشحونة موقّرة بألوان الحمولات وأصناف السِلَع راكدة فى لُجّة البحر او سائرة انها تركّبت ألواحها وأعضادها وتسمّرت مساميرها ودُسُرها وانضمّت حتّى اسفنت بذاتها ثم نقلت الحمولة إلى نفسها حتّى امتلأت ثم ركدت فى الماء فسافرت عند الحاجة وكذلك لو نظر الى ثوب منسوج او ديباج منقوش انه انحلج قطنه وخلص قزّه ثم انغزل وانفتل وانصبغ والتأمت الوشائع[2] وامتدّت الاشراع والتفّت الى منوالها وانضمّت الخيوط بعضها الى بعض فانتسج وانتقش فاذا لم يُجزْ هذا المتوهّم فكيف يتوهّمه على هذا العالم العجيب النظم الباهر التركيب فان ذهبَ ذاهبٌ إلى الفرق بين تركيب العالم وتركيب

[1] Ms. وذلك.

[2] Ms. الوسائغ.

ما يركّبه الإنسان بـأنّ العادة لم تجوّز بابتناء الدور وانتساج الأثواب وانصباغ الأوانى ولم يوجد مثـل ذلـك فى الامتحان والطبائع قيـل فكيف جوّزتم ما هو أعجب ممّا ذكرنا واعظم من غير فـاعل مختار ولا حكيم قـادر فـإن زعم أنّ تركيبَ هذا العالم على هذا النظم ولتركيب[1] من فعل الطبائع فالطبائع إذًا احيآء قادرة حكيمة عالمة ولم يبقَ بيننا وبينه من الخلاف الى تحويـل الاسم وتغيير الصفـة وإن انكر حيـاة الطبيعـة وحكمتها وقـدرتها فكيف يجوز وجود فعل محكم متّقن من غير حكيم حيٍّ قـادر فإن زعم بالحدّ والاتّفاق على هذا الاتّساق غيرُ موهوم وإنّما وقوعه فى النوادر ولوجاز ذلـك لجاز أن من لـه ساحة ولا بنآء فيها ولا عمارة يتّفق اتّفاق ليلة فتُصبح مبنيّةً دورًا مغروسة اشجارًا على احسن الابنيـة واعجب التركيب ولا محيص للملحد من حجج اللـه وآياتـه فكيف وهو حجّة بنفسه ولغيره وليس نورد من هذا الباب هاهنا الّا ما يضاهى الفصل وما يصحّ ويجلّ دون ما يغمض ويـدقّ لانّ من عزمنا أن نبالغ فى الاستقصآء والإيضاح لهذه المسائـل فى كتاب

[1] Ms. والتى بت.

سمّيناه بالديانة والامانة شكرًا لمن أنعم علينا بالتوحيد ومناضلةً عن الدين وتبصّرًا للمستبصرين ومن عند الله التوفيق ، واعلم انّه لوجاز أنْ يُوجَد شئٌ من الأَجسام لا من خلق اللّه لجاز أن يوجَد عاريًا من دلالة عليه فإذا لم يوجد الّا من خلقه لم يخلُ من دلالة عليه فإن قيل وكيف يعلم أنّه مصنوع مخلوق قيل بآثار الحدث فيه فإن قيل فما آثار الحدث قيل الأعراض الّتى لا تعرى الجواهر منها من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون واللون والطعم والرائحة وغير ذلك فإن انكر الأعراض وحدوثها كُلّم بما ذكرناه فى موضعه [f° 15 r°] من الفصل الأوّل فبحدوث الأعراض يصحّ حدوث الأجسام وبحدوث الأجسام يصح وجود المحدث البارئ لها سبحانه ولقد قرأتُ فى بعض كتب القدماء ان ملكا من ملوكهم سأل حكيمًا من الحكماء ما أدلُّ الأُمور على الله فقال له الدلائل كثيرة وأوّلها مسئلتك[1] عنه لأنّ السؤال لا يقع على لا شئ قال الملك ثم ما ذا قال شكّ الشاكّين فيه فانّما يُشكّ فيما هو لا فيما لا هو قال الملك ثم ما ذا قال وله

[1] Ms. مَسْالتك.

الفطن[1] اليه الذى لا يستطيع الامتناع منه قال الملك زدنى قال حدوث الأشيآء وتنقّلها على غير مشيّتها قال زدنى قال الحياة والموت اللّذان يسمّيهما الفلاسفة النشوْ والبِلَى فلستَ واجدًا احدًا أحيا نفسه ولا حيًّا الّا كارهًا للموت ولن ينل[2] منهم يعنى لا ينجو قال زدنى قال الثواب والعقاب على الحسنة والسيئة الجاريان على ألسنة الناس قال زدنى قال أَجِدُ مزيدًا، وجآء فى الأخبار ان بنى اسرائيل اختلفوا فى هذا الباب ففزعوا الى عالم فسألوه بِمَ عرفت البارئ قال بفسخ العزم ونقض الهمّة وكُتُب اللّه المنزّلة مملوّة بدلائل الاثبات والتوحيد تأكيدًا للحجّة لأنّه موضوع فى نفس الفطرة وخاصّةً القرآن وقال الله لرسوله حيث سُئِل عن الدلالة عليه إنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَوَات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل اللّه من السمآء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المُسخَّر

[1] Ms. الفطر.

[2] Ms. نل.

بين السمآء والارض لآيـاتٍ لقومٍ يعقلون[1] فـدلّ على نفسه بخواص أفعالـه ومعجزات آثاره التى لا سمى لغيره فى شىء منها وقـال ولقـد خلقنـا الإنسان من سُلالـة من طين ثُمّ جعلناه نطفـةً فى قرارٍ مكين[2] الى قولـه فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ[3] هل ترى أحدًا يدّعى فعل شىْ من ذلـك وقـال أَمَّنْ خَلَـقَ ٱلسَّمَوَاتِ والأَرض وأَنْزَلَ لكم مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فـانبتنا بـه حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ مـا كان لكم أَنَ تُنْبِتُوا شَجَرها أَإِلَـهٌ مع ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قومٌ يَعدِلُون، أَمَّنْ جعلَ الأَرضَ قَرَارًا وجعلَ خِلالَها أَنهارًا وجعل لها رواسِىَ وجعل بَيْنَ البحرَيْنِ حاجِزًا أَإِلـهٌ مع اللّـه[4] الى آخر الآى الخمس وقولـه أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُون، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَـهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ[5]، دلّهم على نفسه بصُنعه بإعجازهم فى آخر الآيات فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[6] وتكلّف غير مـا

[1] *Qor.*, sour. II, v. 159.

[2] *Qor.*, XXIII, v. 12-13.

[3] *Ibid.*, v. 14.

[4] *Qor.*, XXVII, v. 61 et suiv.

[5] *Qor.*, sour. LVI, v. 58-59.

[6] *Ibid.*, v. 85-86.

فى كتاب الله فضل لانّه معرض ممكن لمن تدبّره وتأمّله وقال وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[1] انكم توجدوها ولم تحدثوها ولستم تملكون شيئًا من أمرها من الصحّة والسقم والشباب وقال سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ[2] يعنى بما ضمّنها من آثار الصنع وشواهد التدبير ودلائل الحدث ورُوينا فى حديث أنّ رجلًا سأل محمّد بن علىّ او ابنه جعفر بن محمّد يا ابن رسول الله هل رأيت ربّك حين عبدته فقال ماكنتُ لا أعبدُ ربًّا لم أرَه فقال الرجل وكيف رَأيته قال لمْ[3] تَرَه العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواسّ ولا يقاس بالقياس[4] معروف بالدلالات موصوف بالصفات له الخلق والأمر يُعزّ بالحقّ ويُذلّ [f° 15 v°] بالعدل وهو على كلّ شَىْء قدير وسُئِل علىّ بن الحسين رضى الله عنهما متى كان ربّك قال ومتى لم يكن ربّنا وحكى عن بعض

[1] *Qor.*, LI, v. 21.

[2] *Qor.*, XLI, v. 53.

[3] Ms. ألم.

[4] Ms. بالناس.

الحكماء أنّه كان يقصّر[1] الناس على هذا القدر من التوحيد ولم يرخص لهم الخوض فى اكثر منه فيقول التوحيد أربعة أشياء معرفة الوحدانيّة والإقرار بالربوبيّة وإخلاص الالهيّة والاجتهاد فى العبوديّة وكانت حكماء العرب فى كفرها وجاهليّتها يُشيرون اليه فى أشعارهم ويمدحونه بآلائه ونعمائه فمن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل [طويل]

وَأَنتَ الّذى من فضل منٍّ ورحمةٍ ... بعثتَ الى مُوسَى رسولًا مناديا
فقلتَ له فاذهب وهارونَ فادعو ... إلى الله فرعون الّذى كان طاغيا
وَقُولا له أأنت سمكتَ هذه ... بلا عَمَدٍ حتّى استقرّت كما هيا
وقُولا له أأنت سَوَّيتَ هذه ... بلا وَتَدٍ حتّى استقرّت كما هيا
وقُولا له مَنْ يُرسِل الشمس غُدوةً ... فتصبح ما مست من الأرض صاحيا
وقُولا له من ينبت الحبّ والثرى ... فتصبح منه البقل يهتزّ راسيا

وكان يقول [متقارب]

وأسلَمتُ وجهى لمن اسلمَتْ ... له الارض تحمل صخرًا ثقالا

[1] Ms. بقصير.

obeikandl.com

دحاها فلما رآها أستوت على المآء أرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهى لمن اسلمَتْ له المُزنُ تحمل عذبا زلالا
إذا هى سُوقت الى بلدةٍ اطاعت فصبَّت عليها سجالا

فجعل يصفه بالصفات التى يَعجز عنها المخلوقون معرفةً منه باستحالة فعل لا من فاعل وأذكرُ أنّى سألتُ بعضَ الأعاجم بنواحى سنجار على نواحى المُزاح والمهازلة إذْ كنت أراه جلف الجفّة ثقيل اللهجة ما الدليل على أنّ لك خالقًا قال عجزى عن خلق نفسى فكأنّما أُلقمتُ حجرًا وما شبّهتُه إلّا بخبر عامر بن عبد قيس إذ خرج عليه عثمان بن عفّان رضى الله عنه وهو فى شملّة اشعث اغبر فى زىّ الأعاريب فقال أين ربّك يا اعرابى قال بالمرصاد فهال ذلك عثمان فارعد له ومن ذلك قول صرمة بن انس بن قيس قبل الإسلام [خفيف]

وله الراهبُ الحبيس تراه رَهن يُونُس وكان ناعم بال
وله هوّدت يهودُ وكانت كلّ دين وكلّ أمر عُضال
وله شمّس النصارى وقاموا كلّ عيدٍ لهم وكلّ احتفال

وله الوَحْشُ فى الجبال تراه فى حِقاف وفى ظِلال الرمال

[f° 16 r°] يعنى أنّ من مخافته هُوِّدت اليهود وحبست الرهبان أنفسها فى الصوامع ومن دلائله عرفت الوحوش منافعها ومناكحها وليست بذات عقول مميزّة وإنّما يعرفه كلّ واحد بمقدار فهمه وكيفيّة استدلاله وانشدنى النهريبندى فى جامع البصرة [طويل]

وَلَوْ حَلَّ اقطارَ السماوات عاقلٌ أو احتَلّ فى أقْصَى بلادٍ تُباعِدُ
ولم يرَ مخلوقًا يدُلّ على هُدًى ولم يَأْتِهِ وَحْىٌ من الله قاصِدُ
ولم يرَ إلّا نفسَهُ كان خَلْقُها دليلًا على بارٍ له لا يُعانِدُ
دليلًا على إبداعها واختراعها مُنيرًا على مرّ الدهور يُشاهِدُ

وفى هذا المقدار مقنَعٌ وبلاغ لمن ناصَح نفسَه وأعطى النَصفة وجانب الجحود والعنود ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نورٍ واذا صحّ اثبات البارى ووجود الصانع فلنقُل الآن فى صفاته

القول فى جواب من يقول من هو وما هو وكيف هو

أقول ان السؤال عنْ المائيّة والمنيّة والهويّة محالٌ من وجه التفتيش عن ذاته لأنّ الإشارة الى هذه الاشياء تصوّرها فى الوهم ولا يتصوّر فى الوهم غير محدود أو نظير محسوس وهذه من صفات الحدث فإمّا أن اراد السؤال عن إثباته واثبات صفاته فلا وذلك كقائل يزعم انه قد ثبت عندى وجود البارئ سبحانه فما هو فالجواب الصواب انه هو الاوّل والآخر والظاهر والباطن القديم الخالق حتّى يُعدُّ جميع أسمآئه وصفاته فإن زعم انه سأل عن هويّة ذاته قيل غير محسوسة ولا موهومة ولا معلومة بالإدراك والإحاطة فإن زعم ان هذا من صفاته اللّاشيّةِ والبطلان فهذا من وساوس الجهل وهذيان الخطل ويكلّم فى ايجاب الصنعةِ الصانعَ والفعلِ الفاعلَ بما قد سبق ذكره فان طلب نظيرًا أو شبيهًا بهذه الصفات فهذا يكلّفنا ان نتّخذ إلهَيْن[1] اثنين محسوسًا وغير محسوس ثمّ نشبّه الغائب بالشاهد ليتحقّقه وما من إلَهٍ إلّا إلَهٌ واحدٌ وليس يجب علم ما تيقّناه لجهل ما جهلنا ألا ترى أنّا اذا آنَسْنا شخصًا فى السواد ولم نعلم ما هو ومن هو لم يجب ان

[1] Ms. الاهين.

نُبطِل علمنا فى ذات الشخص بما خفى علينا من بعض هيئاته كذلك لمّا قامت الدلالة ان يستحيل وجود فعل لا من فاعل ثم وجدنا فعلًا لم نشاهد فاعله لم يجب ان نُبطل علمنا البديهىّ بجهلنا وقد سُئل رسول الله صلعم عن هويّته فنزل الجواب فى صفاته قُلْ هُوَ الله أحد اَللّٰهُ اَلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كفوًا أحد[1] فأخبر انّه أحد لا كأحدٍ وصَمَد لا كصمد لم يلد ولم يولد يعنى الملائكة وسائر الناس من الخلائق الروحانيّين بقوله ولم يكن له كفوًا أحد فنفى النظير والشبيه عنه وقال الرسول عليه السلم فيما رُوِىَ لرجل من الاعراب سأله عنه هو الذى اذا مسّك ضرٌّ فدعوتَه أجابك واذا اصابتك سنةٌ فدعوتَه امطر السحاب وانبت النبات [fº 16 vº] واذا ضلَّتْ راحلتُك بفلاةٍ من الارض فدعوتَه ردّها اليك فجعل يدلّ على ربّه بدلالة فعله وشهادة الكتاب تُغْنِى[2] عن طلب الأسانيد لمثل هذه الاخبار بقول اللّه تعالى امّن يجيب المضطرّ اذا دعاه ويكشف

[1] *Qor.*, sour. CXII.

[2] Ms. يغنى.

السوء[1] وفى روايـة المَقْبرىّ عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلعم [قال] انّ الشيطان يأتى أحدكم فلا يزال يقول له مَنْ خَلَقَ هذا فتقول اللّه حتّى يقول فمن خلق اللّهَ فـاذا سمعتم ذلـك فـافزعوا الى سورة الإخلاص فـقـال ابو هريرة رضى الله عنه فبينا انا قـاعد إذ أتانى آتٍ فـقـال مَن خلق السمآء فقلت اللّه قال فمن خلق الأرض قلتُ الله قال فمن خلق الخلق قلتُ الله قال فمن خلق الله فقُمْتُ وقلت صدقَ رسول اللّه صلعم قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفوًا احد ولهذا نهى عن التفكّر فيـه إذ لا مَطْلَع للوهم والفكر عليـه من طلب ما لا سبيل اليـه رجع باحد الامرَيْن إمّا شاكًّا وإمّا جاحدًا والجحود والشكّ فيـه كُفْر

وقد قيل تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق لأنّ الخلق يدلّ عليه والخالق لا يُدْرَك ولا أعلمُ أحدًا من أصناف الخلـق والأُمم إلّا وهو مُقِرّ بوجود شئ فى الغـائب خـلاف الحاضر فمن ذلـك قول الفلاسفة الهيولى وانـه خلاف الاجرام العُلويّـة والسُّفْليّـة ومنهم من يقول بحىّ ناطق لايجوز عليـه

[1] *Qor.*, sour. XXVII, v. 63.

الموت وهو لم يشاهده حيًّا ناطقًا إلّا ميتًا . ومنهم من قال بأنّ جوهرَ الافلاك من غير الطبائع الأربع وهو لم يشاهد شيئًا من عين الطبائع ومن قال بمواضع من الأرض يبلغ طول النهار بها اربعة وعشرين ساعة ومواضع يغيب الشمس عنها ستّة أشهر وهو لم يشاهدها ومن قال بأنّ النطفة تنقلب علقةً والعلقة تنقلب مُضغةً ولم يشاهدها عيانًا ومن قال بأرض لا بتركب منها حيوان ولانبات ومن قال من الثنويّة بنور خالص فى الغائب وظلمة خالصة غير مماسّين ولا ممتزجين وهو لم يشاهد جسمًا إلّا مؤلّفًا مركّبًا فى أشباهٍ لهذا يطول الكلام بذكرها حتّى تعلم ان قول القائل لا شئ غير ما يعاينه[1] ولا شئ غاب عنه الّا كما يشاهده محال باطل وبعدُ فانّا نجدُ الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والفَرَح والحُزْن واللذّة والكراهية والحبّ والبُغض وغير ذلك من كثير من الاعراض ولا يمكن صفتها بطول ولا لون ولا عَرْضٍ ولا ريح ولا طعم او صفة من الصفات ثمّ لم يجب ابطالها لعدم صفاتها وكذلك العقل والفهم والنفس والروح

[1] Ms. يعانيه .

والنوم لا شكّ أنّها اشياء ثابتة ولها ذوات قائمة من الاعراض ثم لا يُحاط بكميتها ولا بكيفيتها غير وجودها فاذا كانت هذه الاشياء قُربها منّا وتمكّنها فينا ونعجز عن الاحاطة بها ولم يعجز انكارها لوجوهها وكيف بمُبْدِعها ومُنْشئها ومُقيمها على مراتبها وكلّ صانع لا شكّ أعلى رتبةً من مصنوعاته وأرفع درجةً فان قال قائل سَوَّيْتَ بين صفات العقل والروح والنفس وسائر ما ذكرت وبين البارئ الذى يدعونا اليه وتساوى الصفات يوجب تساوى الموصوفات فما ينكر ممّن يزعم انه هو النفس أو العقل لا من الناس من يقول هو نفس [f° 17 r°] الخلائق ومنهم من يقول هو عقولهم قيل انّما يجب تساوى الموصوفات إذا تساوت حدود الصفات فأمّا الألفاظ فمشتركة والمعانى مختلفة ألا ترى انّا نقول له هو ولغيره هو ونقول هو واحد ولغيره ممّا يتميّز من الأعداد واحد ونقول ذاته ولغيره من الحيوان والنبات ذواتها ونقول قال الله وفعل الله فقال فلان وفعل فلان لأنّ الألفاظ سِمَاتٌ للمانى لا يمكن العبارة الّا بها فاذا جِئْنا الى التفصيل قلنا فِعْلُ الإنسان بجارحةٍ وفِعْله ليس بجارحة وفِعْل

الانسان بـآلـةٍ وفِعْلـه ليس بـآلـةٍ وفعل الانسان فى زمان ومكان وفعل اللّـه قبـل الزمـان والمكان فهَلْ بقى بين الفعلَيْن من التشابُـه غير سمة اللفظ وهكـذا سائر الأوصاف

ثمّ من الدلائل على أنّ البارئ جلّ جلاله ليس بالنفس ولا بـالعقل ولا بـالروح كما ذهب اليه من ذهب ان الأنفس متجزّئـة قد فرّقت بينها الهياكل والاشخاص والتجزّئ تفرُّق والتفرُّق عارض ولا متفرّق الّا ومتوهّم تجمّعه والتجمّع عارض وقـد يعيش عائش ويموت مـائت ولا يخلُو[1] من ان تبطُـل نفسٌ بموت صاحبهـا أو ترجع الى كلّيتها او تنتقـل الى غيره والبطلان والرجوع كلّها اعراض وقـد أوضَحْنا الدلالـة على حدث الاعـراض وهكـذا القـول فى الأرواح على السوآء وكـذلـك تفـاوُت العقول واختـلافها ومـا يَعرِضُ فيها من الخلل والنقص والسهو والغلط كلّها من دليل الحدث ومـا العقل فى قصور المعرفة إلّا بمنزلة سَمْع الأُذن وبصَر العين وشمّ الأَنف كلّها موجودة غير معلومة الكيفيّـة والكمّيـة فـان قيـل أَلَـهُ هُويّـة وإن لم نعلها قيـل الهويّـه إضافـة هو الى

[1] Ms. يحلى.

معناه[1] وهو اشارة فامّا معنى الهويّة فالذات واى لعمرى له ذات عالمة سميعة بصيرة قادرة حيّة غير معلومة كيفيّتها فإن قيل فهو عالم بذاته قيل له ليس هو غير ذاته فتكون معلومة له غير علمه ويكون له من ذاته علم ومعلوم وقد قال قوم انه هو الطبائع ومنه حَدَثُ العالم وتركّبه فالطبائع أشياء متنافرة متضادّة مقهورة مجبورة وهذه هى علامات الحدث ثمّ هى غير حيّة ولا عالمة ولا مختارة ولا قادرة فيصحّ منها هذه الافعال المحكمة المُتْقَنَة فان أطلقوا عليها هذه الصفات فهى البارئ بزعمهم وإنّما غلطوا فى التسمية وإن أَبَوْا فى الفعل لا يصحّ إلّا ممّن هذه صفاتُه واختلف أهل الإسلام فى اشياء من هذا الباب فأنكر كثير منهم القول بالأَيْنيّة والمائيّة ولا يخلوان من أن يكونا اياه أو غيره أو بعضه فإن كانا غيره أو بعضه انتقض التوحيد وان كانا ايّاه فهو اذًا أشياء كثيرة وقال ضرار بن عمرو وابو حنيفة رضى اللّه عنهما له أَينيّة ومائيّة لانّه لا يكون شئ موجود إلّا وله أينيّة ومائيّة وعلّة الأينية غير علّة

[1] Corr. marg., ms. معناها.

المائيّة وذلك انك تسمع الصوت فتعلم أنّ له مُصوّتًا وتجهل ما هو ثمّ تراه بعد ذلك فتعلم ما هو فعِلْمُك ما هو غير علمك بأينيّته ومعنى المائيّة عندهما انه يعلم نفسه بالمشاهدة لا بدليل كما نعلمه واختلف المُشبّهة فزعمت النصارى انه جوهر قديم وزعم هشام بن الحكم وابو جعفر الأحول الملقّب بشيطان الطاق انه جسم محدود متناهٍ وقال هشام هو جسم مُصْمَتٌ له قدر من الاقدار من العَرْض كأنه [f° 17 v°] سبيكة تلألأ كالدُرّة من جميع اطرافها واحدة ليس بمجوّف ولا متخلخل وحُكي عن مُقاتل انه قال على صورة إنسان لحم ودم وسُئل هشام كيف معبودُك فأوقد سراجًا وقال هكذا إلّا أنّه لا ذُبالة له وقال قومٌ جسم فضآء مكان الاشيآء كلّها واكبر من كلّ شئ وقال قومٌ هو الشمس بعينها وزعم قومٌ انّه المسيح وقال قومٌ هو على بن ابى طالب وذهب قومٌ إلى اشيآء كثيرة متبعّضة مختلفة القُوَى والفعل إلّا انّ بعضها مُتّصل ببعض وبعضها أعلى من بعض فأعلاها البارئ سبحانه ويزعمون انه لا جسم له ولا صفة ولا يُعرف ولا يُعلم ولا يجوز أن يُذكَر ودونه العقل

ودون العقل النفس ودون النفس الهيولى ودون الهيولى الأثير ثم الطبائع ويرون كلّ حركة او قُوّة حسّاسة أو نَامية منه وسيمرّ بك النقض عليهم مجملًا فى باب التوحيد ان شاء اللّه وأحسنُ ما أختاره فى هذا الفصل ألّا يخوض الإنسان فى شئ منه إلّا باثبات الذات بدلائل الصفات فامّا ما سِوَى ذلك فيسكت عنه وليقتَدِ نبىّ اللّه موسى حيثُ قال له الكافر وما ربّ العالمين قال ربّ السموات والأرض وما بينهما ان كنتم مُوقنين[1] هذا طريق السلامة فإن سأل بعضُ مَنْ لا يعلم كيف هو وأين هو وكم هو فإنّ كيف يوجب التشبيه ولا شبه له وكم استخبار عن العدد وهو واحد واين طلب المكان وليس بجسم فيُشغِل الأماكن،

القول فى أنّ البارئ واحد لا غير أقولُ أنه لما صحّ وجود البارئ بالدلائل العقليّة وجب ان يُنظر أواحدٌ هو أم أكثر لأنّ الفعل قد يفعله الواحد والاثنان وقد يشترك الجماعة فى بناء دار ورفع منار ونظرنا فاذا الدلائل على وحدانيّته بإزاء الدلائل على إثباته وذلك أنه

[1] *Qor.*, sour. XXVI, v. 22-23.

لو كانا اثنَيْن لم يخلُ من أن يكونا متساوِيَيْن فى القوّة والقُدرة والعِلم والإرادة والقِدَم والمشيَّة حتّى لا يُفرق بينهما بصفةٍ من الصفات فإن كانا كذلك فهذه صفة الواحد لا يثبت فى العُقول غيره أو يكون احدُهما أقدم من الآخر وأقدر فَٱلْإِلَهُ إذًا القديمُ القادر إذ العاجز الحادث لا يستحقّ الإلهيّة أو يكونا معًا مُتقاومَيْن مُتضادَّيْن فاذَنْ لا يجوز وجود خَلْقٍ ولا أمرٍ لأنّه لو كانا كذلك لم يخلُقْ أحدُهما خَلْقًا إلّا أفناه الآخر ولم يُحيِ حيًّا إلّا أماته الآخر فلمّا وجدنا الامر بخلافه علمنا أنّه واحد قدير وهذا ضمْنُ قول الله تعالى لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [1] وقال قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَٱبْتَغَوْا إِلَى ذِى ٱلْعَرْشِ سُبُلًا [2] ولو كانا اثنين لكانا قادرَيْن على التمانع والتقاوم أو عاجزَيْن عن ذلك فإن كانا قادرَيْن لم يتّصل تدبير ولم يتمّ وجود خَلْق وإنْ كانا عاجزَيْن فوجود الخَلْق عن العاجز

[1] *Qor.*, sour. XXI, v. 22.

[2] *Qor.*, sour. XVII, v. 44. Lisez سبيلًا.

مُحالٌ أو كان أحدهما عاجزًا والآخر قادرًا فهو كما قلناه آنِفًا ولو جاز القول باثنين لوجود الشئ وضدّه لجاز القول بعدد اعيان الموجودات لاختلاف أجناسها وأنواعها وانّها تمام القُدرة جوازها على الشئ وضدّه ففاعل الشئ اذا كان عاجزًا عن ضدّه غير كامل القُدرة والبارئ عزّ وجلّ دلّ على كمال قُدرته بإيجاد الشئ وضدّه ومن هاهنا تفرّقت المجوس والثنويّة والدَهْرية وسائر فِرق الضلالة فزعمت المجوس بأنّ فاعل الخير لا يفعل الشرّ وأنّ الشرّير لا يفعل الخير لأنّ الجنس الواحد لا يَقَعُ منه إلّا الفعل الواحد كالنّار لا يكون منها إلّا التسخين والثلج لا يكون منه إلّا التبريد [f° 18 r°] فسمّوا الإله الخير هرمز والشرّير الخبيث آهرمَن وأضافوا كلّ حُسْنٍ وجميل وفعل حميد الى الخير[1] وكلّ قبيح وذميم الى الشرّير الخبيث المضادّ له ثمّ اختلفوا بعد إجماعهم على انّ الخير منهما قديم لم يزل وزعم بعضهم ان الشرّير قديم أيضًا كقول الثنويّة بقدم الكونين من النور والظلمة وزعمت طائفةٌ أُخرى انّه حادث ثم اختلف الذين قالوا بحدوث الشرير الخبيث كيف

[1] Ms. الحيّر.

كان حدوثه فزعمت فرقة منهم أنّ القديم الخير تفكّر فكرةً ردئة فاسدة فحدث من فكرته هذا الخبيث الشرير وهذا نقض أصلهم بأنّ جوهر القديم جوهرٌ خير لا يشوبه شئ من الشرور والآفات وزعم آخرون أنّ الخير هفا هَفْوةً فحدث منه هذا الضدّ بلا إرادةٍ منه ولا مشيّة فجعلوا الخير كالمغود الجاهل الذى لا يملك نفسه وأمره وقد أقرّ هذان الصنفان بوقوع الشرّ من الخير المحمود ووجود جنسَيْن مختلفَيْن منه فما حاجتهما الى إثبات فاعلَيْن مختلفَيْن فإذا جاز وقوع الشرّ من هذا الخِير المحمود فما يؤمنهم وقوع الخير من هذا الشرّير المذموم وزعمت فرقة ثالثة منهم انه لا يدرى كيف حدث هذا الشرير المنازع[1] للخير القديم فافصحوا بالحَيْرة ونادَوْا على انفسهم بالشبهة وبِمَ ينفصلون ممّن يعارضهم إذا جاز حدوث شرير فاعل للشرّ لِمَ لَمْ يُجزْ حدوث خير فاعل للخير حتّى يكون خالقهم اثنين حادثَيْن وقد زعموا جميعًا أنّ هذا الشرير كايدَ الخير ونازعه الأمر وجمع الخير جنوده من النور والشرير جنوده من أبعاض الظلمة فاقتتلا مدّةً من

[1] Ms. والمنازع.

الدهر طويلة ثم توسّطت الملائكة بينهما ودعوهما الى الهُدْنة والموادعة الى ان يضع بينهما مدّة سبعة آلاف سنة وهى مدّة قوام العالم فاصطلحا على أنْ يكون أكثر الأمر والحكم والغلبة فى هذه المدّة المضروبة للجوهر الشرّير فإذا انقضت المدّة افضى الأمر الى القديم الخير فأخذ الشرير يستوثق منه إلى أن ينقضى عالم الشرّ والفتنة والفساد ويصير الحكم الى الخير المحض وهذا ظاهر الانتقاض والاختلاف وكيف تطمئنّ النفس الى عبادة عاجز مغلوب على أمر وكيف يؤمن الشرير الخبيث على الوفآء بالعهود والمواثيق وهل هى منه الّا أفضل الخير واتمّ الاحسان فقد وُجد من جوهره الخير وهو من غير جنسه كما وُجد من جوهر الخير العجز والغلبة وهو شرّ وليس من جنسه واختلفت الثنويّة فزعم مانى وابن ابى العوجآء انّ النور خالق الخير والظلمة خالق الشرّ وأنّهما قديمان حيّان حسّاسان وأنّ فعلها فى الخلق اجتماعهما وامتزاجهما بعد أن لم يكونا ممتزجَيْن فحدث هذا العالم من نفس الامتزاج فأقرّا بمحادث حدث فى القديم من غير سبب أوجبه ولا إرادة منه فضاهيا المجوس فى قولهم أنّ الخير حدث منه الشرّ بلا

إرادة منه ولا مشيّة وزعم ديصان ان النور حيٌّ والظلمة مواتٌ فأحال أشدّ الإحالة إذْ أجاز من الموات الفعل فى خلق الشرور والآفات فناقضوا بأجمعهم فى نفس الامتزاج لانّه لو كان بدأبه النور فقد أساءَ فى مخالطة الظلام وان كان بدوه من الظلام فقد غلب النور وأفسده وعندهم أن النور لا يكون منه الّا الخير والظلمة لا يكون منها[1] الّا الشرّ فكلّ خير منسوب الى النور وكلّ شرّ منسوب الى الظلمة واكتفى من جوابهم بما يومض عن مناقضاتهم كفاءَ ما يشاكل [f° 18 v°] كتابنا هذا بعد أن نستقصيه فى كتاب المعدلة ونُشبع القول فيه بمشيّة اللّه وقد سألهم جعفر بن حَرْب عن مسئلة قليلة الحروف عظيمة الخطَر فقال لهم أخبرونا عن رجُل قتل رجلًا ظُلمًا فسُئل أقتلتَهُ قال نعم من القائل نعم قالوا النور قال فقد كذب النور والنور عندكم لا يفعل الشرّ قالوا فهو الظلمة قال فقد صدقت والظلمة لا تفعل الخير وقال هل اعتذر أحدٌ من شىء قطّ قالوا نعم والاعتذار حَسَن جميل قال فمن المُعتذر قالوا

[1] Ms. منه.

النور قال فصنع شيئاً يجب الاعتذار منه قالوا فالظلمة قال فقد احسنتْ اذا اعتذرتْ فقطعهم واستعظم قومُ القول بايجاد أعيان لا من سابق فقالوا بقدم البارئ وشئ قديم معه أمّ الأشياء وآخر الهويات ومادّة العالم والأصل الذى حدثت منه الأجسام والاشخاص فانّه جوهر بسيط عارٍ من الأعراض ثم احدث الصانع فيه أعراضًا من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق فتركّب من حركاته العالم بأجزآئه فهولاء قد أوجبوا شيئين قديمين مختلفين الى الذات والصفة احدهما حىّ والآخر ميت ودخلوا فى مذاهب الثنويّة وناقضوا أصلهم بأنّ البارئ لم يزل يصنع فيه فابطلوا قولهم بأنّه علّة والعلّة لا تفارق المعلول وجملة القول فى الاعتقاد فى المعدوم والموجود أنّ الموجود ما يُعقل أو يعلم أو يحسّ أو يُعرف أو يصحّ منه تأثير أو فيه أو معه أو به فاذا خلا من هذه المعانى فهو المعدوم ولولا ذلك لكان كيف يعتقد المعتقد المعدوم من الموجود فان قيل فقد اعتقدتم القديم أفعدم هو وانتم لا تصفونه بشئ من الحدوث والأعراض قيل افتُسوُّونَ انتم بينه وبين الهيولى فى المعنى أم لا وانتم لا تصفونها بشئ من

الحدود والأعراض ونحن انّما نعتقد وجود البارئ بدلائل صُنعه وآثاره وليس يصحّ الهيولى اثر ويوجب اعتقاده موجودًا بل لو وصفتموه بافعال خاصيَّة وجب اعتقاده وسنزيد ايضاحًا لهذه المسئلة فى فصل ابتدآء الخلق ان شاء اللّه تعالى ،

القول بابطال التشبيه اقول أنّ التشبيه يوجب الاتفاق فى الحكم والمعنى على قدر المواقع من الاشتباه وذلك يزعم أن حدّ الجسم انه طويل عريض عميق يلزمه ان يقتضى على كلّ ذى طولٍ وعرضٍ وعُمقٍ بالتجسيم لأنّ الاشتباه بينهما واقع فى جميع الوجوه فاذا قال جسم لا كالاجسام وأراد أن يبطل الحدود المضروبة فيه فكأنّه يقول جسم لا جسم ويلزمه أن يحكم على كلّ ذى طول بحدّ من حدود الجسم لأنّه من حيث استحقّ بعض أوصافه استحقّ الحكومة به كما أنّه إذا حدّ العرض بأنه لا يقوم بنفسه لزمه القول بأنّ كلّ ما لا يقوم بنفسه فهو عرض فان قيل أليس قلتم انه شئ لا كالاشيآء فما تنكرون من يقول انه جسم لا كالاجسام أو له وجهٌ لا كالوجوه وجارحة لا كالجوارح فإنّ الشئ اسم عامّ

للوجود والمعدوم والقديم والمُحْدَث وحدُّه ما قدْ ذكرناه فى موضعه فاذا سمع السامع به لم يذهب به الى جسم دون عرض ولا الى قديم دون مُحدَث حتى يفرق به الى التفسير ما يدلّ [f° 19 r°] على المراد فاذا سمع بالجسم لم يعقل منه الّا المؤلّف المركّب فلذلك لم يُجزْ إطلاق اسمآء المُحْدَثات عليه لأنّ استوآء أحكام المِثلين من حيث تماثلا وإلى هذا المعنى ذهب الناشى فى قوله [بسيط]

لو كان للّهِ شِبْهٌ من خليقته ... كانت دلائله من خَلقه فيه
قد كان مُقتضيًا من نشو صانعه ... ما يقتضى النشو من آثار ناشيه
لكنّه جلّ عن أوهام واصفه ... فالحس يُعدِمُه والعَقْلُ يُبْديه